ميلاد النبي ميلاد أمة (2)



في ذكرى ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم لا بد للمسلم الحق والداعي إليه من وقفة صادقة يرنو فيها ببصره ويتطلع بقلبه وفؤاده إلى منبع الأسوة الحسنة وموطن القدوة الطيبة، سيد الخلق وحبيب الحق محمد صلى الله عليه وسلم، ليتأسى بمنهجه في التغيير ويقتدي بطريقته في الإصلاح، وقد ذكرنا سابقا في رسالة ميلاد النبي ميلاد أمة (1) أن رسول الله اعتمد ثلاث استراتيجيات كبرى في مكة، هي: البناء الداخلي لمجتمع المسلمين، تحقيق أكبر قدر متاح من الحماية للمسلمين، السعي لإقامة دولة الإسلام، وقد اعتمد مجموع من القواعد المهمة في بناء الأمة، منها التربية المتأنية للأمة وتفعيل دور المسجد والوحدة بين المسلمين وأخيرا فقه الواقع.

والحق ما شهدت به الأعداء، يقول الكاتب والمؤلف الإيرلندي جورج برنارد شو "يجب أن يسمى محمد منقذ البشرية، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم، لوُفِّق في حل مشكلاتنا بما يؤمّن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها". ويقول آخر "يكفي محمدا فخرا أنه خلص أمة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم، وأن شريعة محمد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة".

أمّتنا بين الصعود والهبوط.. والقوة والضعف

إن الأمة الإسلامية ابتدأت طريقها بصعود وارتفاع في زمن الرسول المؤسس –صلى الله عليه وسلم– حتى حدثت ردة الكثير من قبائل العرب ولم يبق سوى مكة والمدينة، فبدأ أبو بكر يعيد مجد الأمة وعزتها برد كيد المرتدين وبداية عصر فتوحات لبلاد الشام، ومصارعة قطبي الصراع العالمي والتنافس الدولي وقتها (بلاد الفرس والروم)، وحقق المسلمون صعودا وانتصارا عظيما في زمنه وزمن صاحبه عمر الفاروق، ثم كانت الدولة الأموية في أول عهدها حققت ارتفاعا وصعودا جديدا للحضارة الإسلامية، حتى أصاب الضعفَ أمراؤها وخلدوا إلى الدنيا فكانت مقدمة الدولة العباسية حتى انزوى نورها على يد التتار واندثرت معها راية الأمة بين الأمم، حتى جدد الله للأمة شبابها على يد الدولة الأيوبية ثم الخلافة العثمانية الراشدة، ثم كانت الانكسارات المتتالية عبر زماننا.

وإن الناظر في واقع الأمة اليوم يدرك تمام الإدراك أنها تمر بمرحلة عصيبة شديدة عليها وعلى أبنائها؛ حيث أصيبت بالتبعية والضعف والهوان والمذلة، حتى تكالب عليها أعداؤها من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، فعملوا على تفريق شملها، وتمزيق وحدتها، والسيطرة على اقتصاديات دولها وأوطانها، ومن تمام إدراكنا أن نعرف أن من أهم أسباب انهزامنا ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: 165)... نعم: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾!!

فإن ما وصل إليه حال أمتنا وبلادنا من عند أنفسنا، لما انهزمنا نفسيا صار الغرب هو سيدنا ونحن عبيده، ولما ضعفت همتنا في العمل والإنتاج صرنا أسرى اقتصاد الغرب، ولما بِتْنا متفرقين انهزمنا وتسلط علينا عدونا، وتبدل حالنا..

وحريّ بعقلاء الأمة وقادتها ودعاة الإصلاح والتغيير لها أن يحسنوا قراءة سيرة الرسول الحبيب –صلى الله عليه وسلم–؛ حيث نراه –عليه الصلاة والسلام– وقد أحسن الأخذ بالأسباب في دعم عوامل القوة في بناء الأمة والدولة، وكذا الحذر من أسباب الضعف والهوان.

عوامل القوة التي اعتمدها الرسول –صلى الله عليه وسلّم– في بناء الوطن والأمة

أولا: بناء الإنسان مقدم على بناء العمران:

إن الإنسان هو شعلة النشاط، وبارقة الأمل في بناء أي مجتمع وأي أمة، فإذا انتهكت حرماته، وضيق عليه في حياته، لن تجد منه عطاء لوطن، ولا حفاظا على مقومات أيا كانت..!! فالاستثمار الحقيقي في الوطن يكون ببناء الإنسان أولاً، عقيدة وثقافة وفكرا وأخلاقا واقتصادا؛ فالإنسان هو أول ركن رئيس في أي خطة للبناء في البلدان والأوطان؛ فهو أساس التقدم، وهو عمود الرقي، وهو ركن التحضر، والله كرمه، فكيف نهينه ونمتهن كرامته لمجرد الاختلاف في الرأي أو الفكر أو حتى العقيدة والدين، يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: 70) كما حرم الإسلام الاعتداء على دين الإنسان، وماله، ونفسه، وعرضه، وبدنه، وأرضه، وعقله، وحريته.. وقد كانت أولى خطوات النبي الحبيب قبل الهجرة وبعدها هو بناء إنسان متكاملا من العقيدة والعبادة والأخلاق والشجاعة والهمّة العالية.

ثانيًا: بناء وحدة الصف المجتمعي لا تقسيمه وتشتيته والتصالح لا التنازع

فإن المجتمع الذي يتمزّق فيه عرى الأخوة والوحدة يكون عرضة للعنف والشتات والتدخل الخارجي؛ فلا بد من وحدة الصف بين أبناء المجتمع الواحد كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في أول مقدمه إلى المدينة الطيبة؛ آخى بين المسلم والمسلم أخوة إنسانية ووطنية وإسلامية، كما آخى بين المسلم وغير المسلم أخوة إنسانية ووطنية، فاستطاع أن يحفظ الوطن في أول عهد تأسيسه، يقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: 103) وقال سبحانه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: 46)، إنه الإسلام الذي يقيم المجتمع على أواصر الإخاء والوحدة بين أبنائه، فلا مكان فيه لصراع الأجناس، ولا لصراع الأديان، ولا لصراع الطبقات، ولا لصراع المذاهب. فالناس كلهم أخوة، تجمع بينهم العبودية لله، والبنوة لآدم، "إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد" واختلافهم واقع بمشيئة الله تعالى وحكمته، وهو يفصل بينهم يوم القيامة، فيما كانوا فيه يختلفون"...فليتفق الناس على القواسم المشتركة، ويتعاونوا من خلالها، وإن اختلفوا في أمور أخرى.

ثالثًا: بناء منظومة العمل والاقتصاد المستقل وحسن توظيف الطاقات

إن رفعة الأمم وتقدمها مربوط بحجم عطاء وعمل أبناء الشعوب والأوطان في تلك الأرض، ومن بين أوامره العليا المقدسة سبحانه قوله تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: 105). وتلك القيمة توفرت وبقوة مع أصحاب رسول الله: فهذا عبدالرحمن بن عوف، قال لسعد بن الربيع: (دلني على السوق)، إنها دعوة للتميز والاستقلالية لا التبعية للآخرين، وقد قرر النبي مع بدايات هجرته بناء سوق للمسلمين، بديلا عن سوق اليهود؛ لئلا يكون تبعا لهم، وأن يكون متميزًا في معاملته التجارية بما يتناسب وشريعة الإسلام، وكما يقول الشيخ الشعراوي –رحمه الله–: "من لم يكن طعامه من فأسه، فلن يكون قراره من رأسه"، ويقص القرآن علينا في قصة ذي القرنين أن حسن استخدام الإمكانات المتاحة، وحسن توظيف الطاقات البشرية قبل المادية، وضرورة وجود إدارة متعاونة لا مستبدة، والعمل على إيجاد فرصة للتعبير والتحرك للمصلحة العامة.. ترفع قدر الأمة والمجتمع الإسلامي.

رابعا: بناء الأمل في النفوس والقلوب

فلا بد من بث الأمل، وتثقيف الناس جميعا بأن من وراء الشدة يأتي الفرج القريب، وأن مع العسر يأتي اليسر، وتلك هي رسالة كل الأنبياء والرسل، وصدق الله إذ يقول ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: 87) رسالة لكل ولي أمر أو مربٍّ أو داعية ولكل إنسان أن يعمل على بث الأمل مهما كانت الظروف المظلمة، وكما يقول بعضهم: لن تكون قمرًا منيرًا إلا إذا أحاطتك الظلمة من كل مكان ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 87)، لأن الأمم لا تبنى باليأس، ولا تتقدم بالتشاؤم، ولا تنافس غيرها ببث الخوف والرعب بين المنسوبين أو الزائرين للمجتمع.

خامسا: بناء منظومة القيم والأخلاق

لا شك أن للقيم والأخلاق أهمية في بناء المجتمعات والأمم، وأي أمة تتنازل عن قيمها وأخلاقياتها لا تستمر ولا تدوم، وإذا دامت فترة لا يكتب لها الخلود، فالمجتمع الملتزم بالقيم مجتمع يجمع بين الرقي والأمان، والاحترام والتقدير، ولذا كانت رسالة النبي البشير واضحة في إعلاء وإعلان القيم الفاضلة في كل معاملة وسلوك، بل رتبت الشريعة الإسلامية الأخلاق كنتيجة طبيعية للعبادات والتشريعات.. وها هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم: يختصر رسالته في قوله (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ) وكما يقول الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

ومن بين القيم والأخلاقيات التي تعمل على بناء الأوطان: المساواة والعدالة والحرية والشورى والشهادة في سبيل الدين والوطن.

سادسا: قوة العلِم والتعليـم
لا يمكّن الله تعالى لأمة الجهل!! ولذا كانت أول كلمات الوحي للرسول (اقرأ) وكان اهتمام النبي عمليا بالعلم؛ حين جعل افتداء الأسرى يوم بدر بتعليم عشرة من أصحابه العلم وإزالة الأمية ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: 114) لأن العلم قوة وقوة عظمى!! فلما لا نتوجه إلى العلم، ونصب اهتمامنا بإخراج جيل متميز وفائق علميا في مجالي الدين والدنيا معا؛ لا سيما وأمم الأرض اليوم تتنافس على تبوء أعلى الأماكن علميا؛ لأنهم أدركوا أن قيمة الدول حقيقة فيما تحسنه في باب الأبحاث والتقدم العلمي.

سابعا: إقامة العدل بين الناس ونبذ الظلم
لقد قص علينا القرآن المجيد قصصا لأمم انكسرت وانهزمت واندثرت لما شاع ظلمها وكثر، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَـاهُمْ لما ظلموا﴾، فبِالعدل قامت السماء، وإنما قامت دولة الإسلام الأولى في رحاب المدينة المنورة يوم أن كان شعار قائدها (لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها)، عندما تساوى الناس وعادت الحقوق للمظلومين والمقهورين انتصرت الأمة وكتب لها القوة والتمكين، وسنة الله تعالى في كونه لا تحابي أحدًا.. ومجرد نسبة الإنسان أو الأمة للرسول لا تعفيها من عقوبة ونتيجة الظلم؛ (فمن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه).

أيها الإخوة والأخوات احرصوا على أن تكونوا أتباعا حقيقيين لرسولنا الكريم –صلى الله عليه وسلم–؛ بحرصكم على بناء أمتكم تبحثون عن معالم عز هذه الأمة وتسعون إلى عملها وإيجادها في واقع حياة الأمة، واعلموا أن أمتكم ووطنكم بكم لا بغيركم!! (وإن لم تزد على الدنيا شيئا فأنت زائد عليها) (والراضي بالدون دنيء) فأحسِنوا عملكم، وأتقنوا تخصصكم، ونموا مهاراتكم، ووظفوا ما تجيدوه في خدمة إسلامكم ووطنكم وأمتكم.

والله معكم ولن يتركم أعمالكم
والله أكبر ولله الحمد